الدكتور إحسان عبّاس

بحوث ودراسات في الأدب والتاريخ

المجلّد الثاني



ابن شهيد الأندلسي وشارل بلا

«ابن شهيد الأندلسي ـ حياته وآثاره»: محاضرات ألقاها شارل بلا الأستاذ بجامعة باريس على طلبة اللغة العربية وآدابها، بكلية الآداب ـ الجامعة الأردنية في تشرين الأول 1965. وحين أتيح لي أن أطلع على هذه المحاضرات تملكني قسط غير قليل من الدهشة؛ ذلك أني أعرف ـ فيما اطلعت عليه من آثار الأستاذ بلا ـ صبر العالم على الاستقصاء وتأنيه في الدراسة، وأخذه بالحيطة في الحكم؛ فجاءت هذه المحاضرات تحمل صورة مغايرة لما أعرفه وقلت: لعله أعجل عن تدّبر موضوعه واستبانة أطرافه تحت إلحاح دعوة سريعة فاجتهد وأخطأ، أو لعل انشغاله بالجاحظ ومصادره هذا المدى الطويل قد حال بينه وبين مواكبة ما يجدّ من دراسات ومصادر أندلسية. وأياً كان الأمر فأني رجوت بهذه الملاحظ التي أقيدها أن أصحح بعض نواحي الخطأ في تلك الدراسة لعل الأستاذ بلا يتداركها في الصورة الفرنسية من كتابه:

1 ـ من المؤكد أن الأستاذ شارل بلا لم ير كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي إذ لو كان رآه لما كتب في ثبت المصادر: (الحميدي: جذوة المقتبس، ط. محمد ابن تاويت الطنجي، القاهرة ـ دون تاريخ ـ) لأن الطبعة التي حققها الأستاذ محمد بن تاويت تحمل تاريخ 1372 هـ الموافق لسنة 1952 م. وإذا كان الأستاذ قد سها عن موضع التاريخ أيضاً فمن الأمور اليقينية أيضاً أنه لم يستخدم جذوة المقتبس في دراسته هذه، ولو فعل لتجنّب الوقوع في بعض الأخطاء التي لا يقع فيها الباحث المدقق. وأول هذه الأخطاء قوله: «بيد أن الضبي صاحب بغية الملتمس يزودنا ببعض الروايات الصحيحة الموثوق بها استناداً إلى ابن حزم بصورة

خاصة»[1]. وهذا كلام لا يقوله امرؤ عارف بالمصادر الأندلسية؛ فإن الذي ينقل عن ابن حزم مباشرة هو تلميذه الحميدي صاحب جذوة المقتبس. ولم يفعل الضبي شيئاً في بغية الملتمس سوى أنه أخذ كتاب الحميدي على حاله دون تغيير وزاد فيه من التراجم ما جدّ حتى عصره؛ فترجمة ابن شهيد في «بغية الملتمس» هي ترجمته في الجذوة نصاً، دون تغيير، والرجوع إلى الأصل فيها أولى. وهذا الخطأ جرّ إلى خطأ آخر وهو قول الأستاذ شارل بلا «بيد أن ابن خلكان يستقي أخبار ابن شهيد من الذخيرة فيذكرها ومن بغية الملتمس ولا يذكرها»، وابن خلكان لا يعرف بغية الملتمس وليست هي من مصادره، وإنما ينقل عن «الجذوة» ـ أي كتاب الحميدي ـ وقد صرح بالنقل عنه عدّة مرات، فإغفاله ذكره في ترجمة ابن شهيد من باب السهو، وإلا فإن أمانة الرجل فوق كل شبهة.

2 ـ ويقول الأستاذ بلا في موضع آخر من كتابه: «ومهما يكن فقد عانى [أي ابن شهيد] في أيام القاسم بن حمود مكاره أليمة نجد لها صدى في أشعاره إن صدقنا الفتح بن خاقان. . . فيزعم ابن خاقان أنه سجن ولكن ظروف هذا الاعتقال غير واضحة ولا يشير غيره ممن ترجم له إلى سجنه»[2]. وهذا الكلام خطأ من وجهتين فإن ابن شهيد لم يعان أيام القاسم بن حمود مكاره أليمة، كما أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الشك في كلام الفتح بن خاقان. وقد عرض ابن الأبار لهذه الحادثة في كتابه «اعتاب الكتاب» بما يؤكد أن ابن شهيد سجن في العام الذي تولى فيه المعتلي يحيى بن حمود قرطبة (30 ربيع الثاني سنة 412 ـ 12 ذي القعدة 413) فقال: سُعي به إلى المعتلي يحيى بن علي بن حمود في خلافته بقرطبة فنكبه واعتقله فقال في ذلك ما أورده أبو مروان عبد الملك بن غصن الحجاري في رسالته في صفة السجن والمسجون. . . يستعطف ابن حمود ويعتذر إليه[3]:

---

(1) ابن شهيد: 17.

(2) ابن شهيد: 37 ـ 38.

(3) في هذه القصيدة أبيات لم ترد في ديوان ابن شهيد الذي جمعه الأستاذ شارل بلا، وهو جمع سريع لم يهتم بالاستقصاء.

يجود بشكوى حزنه فيجيد

قريب بمحتل الهوان بعيد

فصفح عنه وخلى سبيله فقال من قصيدة يشكره فيها ويهنئه بفتح أولها[1]:

وبالدهر مما خاف بطشك أولق[2]

فريق العدا من حدّ عزمك يفرق

3 ـ وقد ذكر ابن شهيد في مقدمة التوابع والزوابع كنى ثلاثة أشخاص كانوا يكيدون له ويسيئون إليه وهم أبو محمد وأبو القاسم وأبو بكر. وكان الأستاذ بطرس البستاني قد حاول منذ سنوات عديدة أن يحزر أصحاب هذه الكنى فتردد في حال أبي محمد بين أبي محمد المعروف بابن الفرضي وأبي محمد بن حزم ورجّح الثاني، يقول «لسلاطة لسانه» ـ غفر الله للبستاني جهله بآداب اللياقة في الحديث عن الفقيه الكبير ـ وأما أبو بكر فقد يكون أبا بكر بن حزم وقد يكون الكاتب أبا بكر المعروف باشكمياط. ويأتي الأستاذ شارل بلا فيذهب إلى أن أبا بكر المذكور هنالك هو أبو بكر ابن حزم أخو الفقيه أبي محمد ابن حزم «بدون أدنى شك»[3] ـ هكذا بصورة القطع الحاسم ـ. وهو أمر ذكره الأستاذ الحاجري ترجيحاً فقال إن التوابع والزوابع قدمت لأبي بكر ابن حزم «وأكبر الظن عندنا أنه أخوه (أي أخو أبي محمد)[4]. وعند هذه المسألة عينها وقف الدكتور أحمد هيكل في كتابه «الأدب الأندلسي» فقال: «وقد فسّر ابن بسام أبا بكر هذا بأنه أبو بكر ابن حزم وتبعه في ذلك ابن سعيد وكثير ممن كتبوا عن ابن شهيد والمعروف أن أبا بكر ابن حزم قد مات صغيراً وقبل أن يؤلف ابن شهيد رسالته بزمن طويل فقد مات في الطاعون الذي اجتاح قرطبة سنة 401. . . فأغلب الظن أن الأمر التبس على ابن بسام حين رأى الرسالة موجهة إلى أبي بكر. . . الخ[5]. وهكذا تجاوز الأستاذ شارل بلا

---

(1) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن شهيد مصورة بقوله: قال أبو عامر يمدح ابن حمود، ولم يبين جامع الديوان أي بني حمود هو المقصود بالمدح.

(2) انظر اعتاب الكتاب: 203 ـ 205.

(3) ابن شهيد: 54.

(4) ابن حزم: 113.

(5) الأدب الأندلسي 419: (ط/ 1958).

ترجيح الدكتور الحاجري إلى القطع الحاسم ولم يطلع على ما كتبه الدكتور هيكل ـ وهو قد كتب بعد آراء البستاني بسنوات ـ.

والمسألة بعد ذلك غاية في البساطة، فإن اطلاع الدارسين على كتاب الحميدي كفيل بأن يقدم لهم الجواب الحاسم فيها. فابن شهيد قدم رسالته لرجل اسمه أبو بكر وهو أيضاً أبو بكر ابن حزم كما قال ابن بسام دون أن يلتبس عليه الأمر، وأبو بكر ابن حزم هذا ترجم له الحميدي في الجذوة فقال: «يحيى بن حزم أبو بكر: شيخ من شيوخ الأدب وله في ذلك ذكر وهو الذي خاطبه أبو عامر بن شهيد برسالة التوابع والزوابع التي سماها شجرة الفكاهة **وهو من بيت آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم**»[1]. وإذا قال الحميدي ذلك فهو الثقة العارف الذي لا يتحمل قوله في مثل هذا الأمر أدنى شك، فقد كان ملازماً للفقيه أبي محمد مدة طويلة ويعرف بيت بني حزم أسرة الفقيه معرفة وثيقة.

وبدهي أن أبا بكر يحيى بن حزم هذا الذي لم يكن أخاً للفقيه ولا كان من عائلته لا يمكن أن يكون أحد الثلاثة الذين تنقصوا ابن شهيد؛ فهو صديقه الذي قدم إليه التوابع والزوابع وهو الذي يخاطبه في أول الرسالة بقوله: «لله ـ أبا بكر ـ ظنّ رميته فأصميت، وحدس أملته فما أشويت، حين لمحت صاحبك الذي تكسبته... فقلت كيف أوتي الحكم صبياً... الخ» فأبو بكر معجب بابن شهيد يرى في بيانه ما يعجز الأنس. أما أبو بكر الذي عابه حين عرضت عليه فصول من كلامه فهو أبو بكر ابن أشكمياط إذ قال في تلك الفصول: «فقر حسان إلا أنه عثر عليها»[2]. يتهمه بالسرقة الخفية؛ ولذلك تهدده ابن شهيد بقوله: «لأقطعن حبالك هاجراً، ولأتركن ليلك ساهراً»[3]. فمن هو أبو بكر ابن اشكمياط هذا؟ لقد تصحف اسمه في المصادر فهو اشكهباط في المغرب[4] واشكنهاده في

(1) الجذوة: 351.
(2) الذخيرة 1/1: 195.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المغرب 1: 31.

النفح[1] واشكمياط في الذخيرة واسمه محمد بن قاسم وينقل ابن سعيد عن المسهب قول الحجاري فيه: «أصله من وادي الحجارة ونشأ بقرطبة وساد فيها، وجارى حلبة الأعيان والكتاب في تلك الفتنة التي قلبت أسافلها أعاليها». ويقول ابن سعيد إن الحجاري أطنب في ذمه. ولما نبت به قرطبة ارتحل إلى المشرق ثم عاد إلى كنف مجاهد العامري؛ فهو من أهل قرطبة ومن معاصري ابن شهيد وفي نفسه من تفوق ابن شهيد حسد أو ما أشبهه يدفعه إلى الغض من أدبه؛ ولذلك أرجح ـ ولا أقطع على طريقة الأستاذ بلا ـ بأنه هو أحد الثلاثة العيابين للأديب الشهيدي.

وبقي من الذين تصدوا لابن شهيد اثنان هما أبو محمد وأبو القاسم، أما الثاني منهما فلا تحتاج معرفته إلى توقف لأن ابن شهيد نفسه صرح بأنه أبو القاسم ابن الإفليلي. وأما أبو محمد فمن العسير أن نتبينه. غير أن قول ابن شهيد فيه «أما أبو محمد فانتضى عليَّ لسانه عند المستعين» يبعد النظر عن ابن حزم الفقيه إبعاداً تاماً، لأنه لم تكن لابن حزم بالمستعين علاقة ـ فيما نستطيع أن نستقرئه من أخباره بعيد الفتنة البربرية التي اجتاحت قرطبة.

4 ـ ولما قطع الأستاذ بلا بأن أبا بكر بن حزم الذي خاطبه ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع هو أخو الفقيه الكبير، قال: «وبما أن أبا بكر مات سنة 401، يجب أن تكون الرسالة قد حررها ابن شهيد وهو شاب»[2] وهذا الاستنتاج يسقط من تلقاء نفسه بعد أن ثبت خطأ المقدمات المفضية إليه، وبالتالي يسقط كل توجيه أو تأويل معتمد عليه: كأن يفترض الأستاذ بلا أن ابن شهيد حرر نسخة أولى من الرسالة ثم أضاف إليها أشعاراً نظمها بعد ذلك التاريخ، فلا ضرورة لمثل هذا الفرض؛ ومن ثم تنهار المحاولة لتعيين التاريخ الذي وضعت فيه الرسالة، على هذا الأساس نفسه.

(1) النفح 3: 298 (ط. التجارية).
(2) ابن شهيد: 95 ـ 96.

وتبقى بعد ذلك مسألة العلاقة بينها وبين رسالة الغفران من حيث الزمن، فمن المقطوع به أن رسالة الغفران كانت تملى سنة 424 أما رسالة التوابع والزوابع فلا شيء يحول دون القول بأنها كتبت قبل ذلك التاريخ، ثم لا لقاء بين الرسالتين: لا في الدوافع ولا في طبيعة الخيال ولا في الغايات؛ ومن عجب أن يظل الدارسون يضعون الواحدة منهما أزاء الأخرى ليتساءلوا أي الرجلين أخذ عن الآخر. ذلك أن الجامع بين الرسالتين وهو قيامهما على رحلة إلى عالم غير دنيا الإنس إنما يعد في مثل هذا الموقف جامعاً شكلياً، فكل رسالة منهما نبعت من أصل مستقلّ. إحداهما نبعت من فكرة جاهلية هي «شيطان الشاعر» والثانية نبعت من فكرة إسلامية هي «فكرة البعث» وأثارت الأولى كلمة من صديق قال فيها لصديقه «إن له تابعة»، وأثارت الثانية أسئلة حائرة حول المذنب وما قد يتوقعه من غفران، ومن العبث أن نحاول إثارة سؤال واهم من مثل: أي الرجلين أخذ عن الآخر، ذلك أننا إذا تناسينا كل شيء عن الفروق بين الرسالتين واتخذنا صورة الرحلة - وهي تلك الصلة الشكلية - أساساً للسؤال، فإن طبيعة الظروف تحتم أن كلاً من الرجلين قد كتب رسالته دون أن يعرف شيئاً عن عمل صاحبه. وتبيان ذلك، إذا نحن نظرنا إلى هجرة الكتب من المشرق إلى المغرب، إن آثار المعري لم تبدأ تأثيرها في الأندلس قبل حوالي منتصف القرن الخامس، وإن رسالة الغفران لم تجذب اهتمام الأندلسيين قدر ما فعلت كتبه الأخرى، ومن درس معارضات الأندلسيين لملقى السبيل ومعارضات ابن عبد الغفور صاحب «احكام صنعة الكلام» (منتصف القرن السادس) لكثير من مصنفات المعري علم أن رسالة الغفران لم تذكر إلاّ عرضاً بين مؤلفات أبي العلاء، هذا إلى أن وفاة ابن شهيد (سنة 426) تحتم أنه لم يطلع على رسالة الغفران أبداً، وأنه أنشأ رسالته معتمداً على خياله الخاص؛ وفي عصر ابن شهيد لم يكن أبو العلاء «نموذجاً» للنثر، إنما كان النموذج ما يزال هو الجاحظ وبديع الزمان وأضرابه من كتّاب القرن الرابع. وهذا ابن حزم الأندلسي الذي ألّف كتاب «التقريب لحدّ المنطق» بين سنتي 415 ـ 425 فيما قدرناه يذكر الكتّاب المتأخرين في الجزء الخاص بالبلاغة ويصفهم بالتزيد والصلف ويستثني من ذلك

الحاتمي وبديع الزمان ولا يعرف شيئاً عن أبي العلاء المعري. ذلك هو الجو النثري الذي كانت تعيش فيه الكتابة الأندلسية حينئذ وليس للمعري فيه أثر، ولكن الحال ستتغير حتماً بعد وفاة ابن شهيد بسنوات.

وأما إذا نظرنا إلى هجرة الكتب من المغرب إلى المشرق فعلينا أن نقرر أن المصادفة كانت عاملاً كبيراً في وصول الكتب الأندلسية إلى المشارقة، وأن المهاجرين من المغرب ـ وهم المسؤولون عن نقل بعض الكتب الأندلسية ـ كانوا في الغالب طلاباً يروون عن الشيوخ، وقلما يتاح لهم أن يسمعوا الآخرين ما رووه في الأندلس. والمصادفة وحدها هي التي تجعل مهاجراً أندلسياً يحدث بالشعر الأندلسي في نيسابور دون أن يسمع بهذا الشعر رجل في المعرة، وهي أقرب إلى الأندلس من نيسابور. ولم يكن هناك أخذ منظم لأخبار الأندلس والأدب الأندلسي إلاّ في عصر السلفي (أواخر العصر الفاطمي)، إذ جعل السلفي من همّه الترحيب بكل قادم من المغرب وتدوين ما يسمعه منه، وكان مركزه في الإسكندرية يعينه على ذلك. وتجتمع المصادفة مع الرغبة الذاتية في التدوين، وبسبب اجتماعهما معاً نقل لنا التوحيدي أخباراً قليلة عن الأندلس سأل عنها صديقه «الأندلسي» ابن حمود الزبيدي، ودوّن الثعالبي قطعة من الشعر الأندلسي، وكتب ابن سناء الملك في الموشح كتابه «دار الطراز» حين نقل إليه تلك الموشحات أحد أولئك المهاجرين، ودون السلفي ما دونه من أخبار وحقائق عن الأندلس في «معجم السفر»؛ وكان جهل المشارقة بأخبار الأندلس وعلمائها وأدبها أحد الحوافز التي دعت لتأليف كتب تعريفية يكتبها أندلسيون من المهاجرين مثل جذوة المقتبس للحميدي وكتاب المعرب لابن اليسع والمطرب لابن دحية وغير ذلك.

لهذا لا أعتقد أنني أبعد عن الصواب إذا قلت: إن المعري لم يعرف ابن شهيد ولم يقرأ رسالة التوابع والزوابع، وحال المعري في ذلك كحال كثيرين غيره من المشارقة. حتى الذين عرفوا منهم ابن شهيد لم يسمعوا بشيء اسمه رسالة التوابع والزوابع أو «شجرة الفكاهة». وهذا الثعالبي الذي قيد بعض أشعار ابن

شهيد ونثره ـ وابن شهيد ما يزال على قيد الحياة ـ لم يشر بشيء إلى الرسالة أو إلى موضوعها وعنوانها.

5 ـ لقد قلت: إن المصادفة مجتمعة مع الرغبة الذاتية كانت سبباً في ما قيده الثعالبي من أشعار الأندلس. فقد اتفق لمهاجر أندلسي اسمه الوليد بن بكر الفقيه أن وصل إلى نيسابور وهناك اجتمع بشاعر لغوي من علماء نيسابور اسمه عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عزيز بن يزيد الحاكم[1] ويعرف بشهرة جده أي ابن دوست ويكنى بأبي سعيد، وكان هذا الرجل من أبرز تلامذة الجوهري صاحب الصحاح في اللغة وأستاذ الواحدي فيها؛ وأقام ذلك المهاجر الأندلسي في نيسابور مدة، اتصل فيها بأبي سعيد بن دوست وروى له قطعة من أشعار الأندلسيين، تحدث بها ابن دوست من بعد إلى الثعالبي فأدرجها في يتيمة الدهر.

وهذه المصادفة وحدها لا يستدل منها على أنه كان لابن شهيد «شهرة في المشرق وهو في حيز الحياة»، كما يقول الأستاذ بلا ـ بل تدل على ما بلغ إليه من شهرة في الأندلس نفسها بحيث روى شعره رجل أندلسي مهاجر وحمله معه إلى المشرق الذي لم يكن يعرف شيئاً عن ابن شهيد. ولعل شهرته لم تتجاوز تلك الحلقة في نيسابور قبل أن تذيع يتيمة الدهر بين المشارقة.

من هو الوليد بن بكر الفقيه الأندلسي الذي كان ذا فضل في رواية جزء من الشعر الأندلسي لبعض المشارقة؟ يقول الأستاذ شارل بلا: «فبحثت عن هذا الشخص ووجدت أندلسياً من سرقسطة اسمه الوليد بن بكر بن مخلد أبو العباس الغمري فارق وطنه وتجول في إفريقية ومصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر وألّف كتاب «الوجازة في صحة القول بالإجازة» وتوفي بدينور سنة 392/1002 حينما كان ابن شهيد لم يتجاوز العاشرة فالأرجح أن الضبي (الذي نقل عنه الأستاذ بلا هذه الترجمة) قد أخطأ وخطأه مفهوم إذ مات الراوي بالمشرق».

(1) انظر ترجمته في بغية الوعاة: 302 والنقل فيه عن الصفدي، وراجع اليتيمة 425:4 (ط. محيي الدين عبد الحميد) وفوات الوفيات لابن شاكر 549:1 وإنباه الرواة 167:2.

وأقول ها هو الضبي مرة أخرى يتحمل ظلماً مسؤولية ما يقوله الآخرون، فهذه هي ترجمة الوليد بن بكر حسبما أوردها الحميدي في جذوة المقتبس، وهو الذي ذكر أن وفاة الوليد كانت سنة 392 وهو لم يكن في الأندلس حين كتب هذا الكتاب وإنما كان في المشرق. فإذا كان هناك من خطأ في تعيين سنة الوفاة فهو خطأ الحميدي لا الضبي. وعلى الرغم من أننا نجد ترجمة للوليد بن بكر في الصلة لابن بشكوال[1] فإننا لن نعتمد عليه في تحديد تاريخ الوفاة، لأنه قد يخطىء فيها فهو أيضاً بعيد في الأندلس والراوي قد مات في المشرق. ولكنا نجد المشارقة أنفسهم يترجمون للرجل فيوردون سنة وفاته (أي 392) دون تردد أبداً. يقول الخطيب البغدادي: حدثني أبو العلاء محمد بن علي الواسطي قال: «توفي الوليد بن بكر الأندلسي بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلاثماية»[2].

ونقل الذهبي عن الحاكم في ترجمة الوليد قوله: «وقال أبو عبدالله الحاكم سكن نيسابور مدة وهو مقدم في الأدب شاعر فائق، توفي بالدينور سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة»[3].

ولكن إذا كان الرجل قد توفي في هذا العام فكيف يمكن أن يروي شعراً لابن شهيد، وابن شهيد لم يكن قد بلغ العاشرة حينئذ؟ وكيف يكون في ما يرويه أشعار مما قاله ابن شهيد حوالي سنة 414؟ هنا قد نقدم بعض الفروض:

1 ـ إن هناك خطأ في تاريخ الوفاة تمّ بتواتر النقل (وليس الضبي مسؤولاً عنه) وهذا يستبعد مؤقتاً لأن خبر الوفاة نقل من مصدرين متباعدين.

2 ـ إن الوليد بن بكر الذي روى الشعر لابن دوست قد يكون شخصاً آخر غير الوليد بن بكر الغمري الذي تصح وفاته سنة 392.

3 ـ إن ابن دوست أو الثعالبي وهم في النقل، فنسب إلى الوليد بن بكر المتوفى

---

(1) انظر الصلة: 107 (ط. مصر).

(2) تاريخ بغداد: 450:13.

(3) تذكرة الحفاظ: 1081.

سنة 392 ـ على وجه الخطأ ـ رواية لأشعار أندلسية نظمت بعد سنة 392.

وأنا أميل إلى الفرض الثالث، لأني أرى أن الوليد بن بكر الغمري هو بحكم إقامته في نيسابور أحق من تنسب إليه رواية الشعر الأندلسي، ولكن الأمر اختلط على ابن دوست ـ أو على الثعالبي ـ وخصوصاً أن الثعالبي لم يذكر اسم الفقيه في رواية الشعر الأندلسي المبكر وأصرّ على ذكره مرتين حين روى شعر ابن شهيد ونثره، ولا أزال عاجزاً عن تعليل هذا الإصرار.

6 ـ وإذا سلمنا مع الأستاذ شارل بلا بأن كتاب كشف الدك وإيضاح الشك لابن شهيد مجهول فلا نستطيع أن نسلم بقوله وهو يتحدث عن «حانوت عطار»: «ولا نعلم عنه شيئاً غير أنه عنوان كتاب ضائع للجاحظ ربما عارضه ابن شهيد، وأن ابن سعيد يروي أبياتاً لعم أبي عامر وأخيه قائلاً أنها موجودة، في حانوت عطار»[1]. ففي هذه المرة استغنى الأستاذ بلا عن تصفح كتاب الضبي ـ الذي هو صورة لكتاب الحميدي ـ؛ وذلك أن الحميدي قد صرّح بالنقل عن حانوت عطار في ثلاثة مواضع من كتابه:

1 ـ حين تحدث عن موقف منذر ابن سعيد وخطبته أمام وفد القسطنطينية أيام عبد الرحمن الناصر فقال: وقد ذكر هذا المعنى أبو عامر بن شهيد في كتابه المعروف بحانوت عطار[2].

2 ـ في ترجمة أبي جعفر بن جواد حيث قال: ذكره أبو عامر الشهيدي في كتاب حانوت عطار وقال... الخ[3].

3 ـ في ترجمة أبي المخشي قال: «وأنشد له أبو عامر ابن شهيد فيما استحسن من شعره في كتاب «حانوت عطار»[4]؛ ثم نقل قول ابن شهيد

---

(1) ابن شهيد: 91.
(2) الجذوة: 326.
(3) الجذوة: 370.
(4) الجذوة: 377.

في أبي المخشي نصاً: «وأما أبو المخشي فإنه قديم الحوك والصنعة عربي الدار والنشأة وإنما تردّد بالأندلس غريباً طارئاً وهو من فحول الشعراء المتقدمين».

وقال الحميدي في ترجمة ابن شهيد نفسه: «ولم ير لنفسه في البلاغة أحداً يجاريه وله كتاب «حانوت عطار» في نحو من ذلك. فقوله «في نحو من ذلك» يشير إلى أن الكتاب يعتمد البلاغة، وذلك بالترجمة لأدباء الأندلس السابقين والمعاصرين وإيراد خير ما استحسنه من شعرهم ونثرهم. وعلى هذا نستطيع أن نطمئن إلى أن الحميدي يشير إلى هذا الكتاب نفسه حين يقول في كثير من الترجمات «ذكره أبو عامر ابن شهيد». ويبدو من بعض نقول الحميدي أن حانوت عطار كان حافلاً بأخبار لا نجدها في غيره من الكتب وبآراء نقدية تعزّز موقف ابن شهيد النقدي في رسالة التوابع والزوابع وغيرها من رسائله. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما جاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي الفهد، قال الحميدي: «ذكره أبو عامر بن شهيد وغيره وهذا نص كلام أبي عامر فيه قال: وأبو المطرف ابن أبي الفهد رحل إلى العراق عنا ولم يستوف الثلاث والعشرين ثم خفي علينا خبره وكان من أشعر من أنبتته الأندلس ووطىء ترابها بعد أبي المخشي أولاً وأحمد بن دراج آخراً وكان من أبصر الناس بمحاسن الشعر وأشدهم انتصاراً له، وشعره بلطائف غرائبه وبدائع رقائقه يروق، وهو غزير المادة واسع الصدر حتى أنه لم يكد يبقي شعراً جاهلياً ولا إسلامياً إلاّ عارضه وناقضه وفي كل ذلك تراه مثل الجواد إذا استولى على الأمد، لا يني ولا يقصر، وكانت مرتبته في الشعراء أيام بني أبي عامر دون مرتبة عبادة في الزمام فاعجب!». وكأن ابن شهيد في هذا النقد إنما يتحدث عن نفسه في معارضاته، واستيلائه على الأمد كالجواد الذي لا يني ولا يقصر.

7 ـ ابن شهيد ـ كما نرى ـ ناقد يجعل المعارضة محكاً للإجادة، ويقيم أكثر قصائده ونثره في رسالة التوابع والزوابع على معارضة شعراء المشرق وناثريه ثم تسمع من يؤرخ لهذا الناقد ويقول: «فقد أجاد أبو عامر في جميع الأنواع الشريفة

من المدح والرثاء وغيرهما دون أن يقلد شاعراً بعينه ويتبع نماذج عصر من العصور»[1]. ولست أعني أن معارضات ابن شهيد كانت محض تقليد متخلف، فإن دوافع التفوق الذاتي على من يعارضهم كانت متوفرة غزيرة لديه ولذلك تميز شعره بالجدة والصور الطريفة والتوليد الدقيق. وبهذا طاوعه الشعر والنثر مطاوعة عجيبة، ولكن محاكاة نماذج العصور المختلفة كانت أساساً في صنعته الأدبية عامة.

على أنّا لا نريد أن نجعل من هذه المسألة ـ على وضوح أسبابها ومقدماتها وظهورها بارزة في رسالة التوابع والزوابع ـ محطاً للجدل والمناقشة لأنها أعلق بالرأي النقدي، والناس في تقديراتهم النقدية يختلفون متفاوتين وربما لم تلتق بهم الطرق عند نقطة واحدة؛ ولذلك تركت ما كان من قبيلها في هذا الكتاب ـ وهو كثير ـ وأعرضت عن الخوض فيه واكتفيت بجانب الخبر والرواية حين يكونان مؤيدين بتصور صحيح لا يعتوره خلل، فذلك حسبي في هذا المقام، وهو حسب الأستاذ شارل بلا، الرجل الذي لا يحتاج إلى مثلي لينبهه إلى المنهج السليم.

---

(1) ابن شهيد: 112.